



## مراسلات العالم أبي العباس المقري التلمساني للشيخ عبدالرحمن بن مرشد مفتي الديار الحجازية ما بين سنتي (١٠٣٤ هـ و ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٤-١٦٢٦م)

أ. د. فاطمة مصطفى بلهوارى

تتطرق الدراسة إلى جملة من المراسلات التي ضمّتها الرحلة المدوّنة للعالم الأديب المؤرخ شهاب الدين أبي العباس المقري التلمساني (ت. ١٠٤١هـ) إلى المشرق والمغرب، وهي تلك التي كانت بينه وبين مفتي الحرمين الشريفين الشيخ عبدالرحمن بن مرشد، وأوردها المقري ضمن النبذة الأخيرة من رحلته تحت عنوان (إنحاف المنشي والمنشد ببعض كلام الإمام مفتي الحرمين ابن مرشد)، فتحاول الدراسة الكشف عن مضامين تلك المراسلات وتحليلها وبيان أثرها في تدوين تاريخ شبه الجزيرة العربية بعامة وتاريخ الحجاز بخاصة، معتمدةً على المنهج التاريخي القائم على الوصف والتحليل، وتكشف تلك المراسلات عن كثير من المعلومات عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والإدارية في الحجاز وبعض الأقطار العربية، وعن سير الحج والوضع الأمني في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

Correspondence by Scholar Abi Al-Abbas Al-Maqari Al-Telmesani  
by Sheikh Abdulrahman bin Murshid, Mufti of Hijaz between (1034-  
1036AH/ 1626-1624G)

*Prof. Fatima Mostafa Belhaouari*

The study focused on a number of correspondences included in the documented trip by the writer, historian and scholar Shehabuddin Abi Al-Abbas Al-Maqari Al-Telmesani (d. 1041AH) to the East and South. Those correspondences took place between him and Mufti of the Two Holy Mosques, Sheikh Abdulrahman bin Murshid. Al-Maqari included them in the last summary of his trip under the title (Ithaf Al-Munshi and Al-Munshid with some of the words of Imam Mufti Al-Haramain Ibn Murshid). The present study attempted to uncover and analyze those correspondences and show their influence on writing the history of the Arabian Peninsula in general, and the history of Hijaz in particular. The study adopted the historical approach that is based on description and analysis. Those correspondences reveal a lot about the economic, social, political, military and administrative conditions in Hijaz and some Arab countries. They also unveil a lot about Haj to Makkah, and the security conditions in the 11th AH/17th G centuries.

(قدم للنشر في ١٤٤١/٦/٢٨هـ، وقبل للنشر في ١٤٤٣/٧/٥هـ)

Department of History - College  
of Arts and Social Sciences -  
Sultan Qaboos University

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم  
الاجتماعية - جامعة السلطان  
قابوس

fbelhouari10@gmail.com

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دار الملك عبدالعزيز  
العدد الثالث، يوليو ٢٠٢٣م، السنة التاسعة والأربعون



خلف شهاب الدين أبو العباس المقري التلمساني (٩٨٦-١٠٤١هـ / ١٥٧٨-١٦٣١م) صاحب الكتاب المشهور (نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب) رحلة في غاية الأهمية في وصف أحوال العالم الإسلامي عامة والحجاز خاصة في القرن الحادي عشر الهجري / القرن السابع عشر الميلادي<sup>(١)</sup>.

ويستفاد من محتوى هذه الرحلة أنها تضمنت مخاطبات ومكاتبات ومراسلات المقري مع أعيان عصره من فحول الأدباء والعلماء ورجال الإفتاء والأمراء من مختلف البلاد الإسلامية مغرباً ومشرقاً تخص قضايا الأمة العربية والإسلامية في مناح متعددة.

ومما تطرقتُ إليه من جملة المراسلات التي ضمتها الرحلة إلى المغرب والمشرق، تلك التي جرت بين صاحب الرحلة العالم الأديب والمؤرخ المقري وبين نظيره مفتي الحرمين الشريفين عبدالرحمن بن مرشد، والمؤرخة ما بين سنتي ١٠٣٤-١٠٣٦هـ / ١٦٢٤-١٦٢٦م، وللكشف عن محتوى تلك المراسلات فقد تركزت إشكالية الدراسة في البحث عن مظاهر الحياة في شبه الجزيرة العربية بأبعادها السياسية والحضارية في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي التي برزت من تلك المراسلات المتبادلة بين العالمين. وبطبيعة الحال فقد انبثق عن تلك الإشكالية

(١) التلمساني، أبو العباس أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص ٩.

المركزية جملة من الأسئلة الفرعية تصب هي الأخرى في ذات السياق وتعمل لتعميقه، على الطرح الآتي: هل استطاعت تلك المراسلات بين العالمين أن تجسد تاريخية المكان في العصر الحديث؟ وما القضايا التي أولتها هذه المراسلات اهتماماً في تاريخ شبه الجزيرة العربية عامة والحجاز خاصة؟ وإلى أي مدى استطاع خطاب الترسُّل أداء وظيفته في ربط التواصل الفكري بما يحمله من أبعاد إنسانية وحضارية في ظل مرجعية ثقافية موحدة؟ وللإجابة عن هذه الفرعيات بما تقتضيه الإشكالية المطروحة قسم البحث إلى المحاور الآتية:

- ١- نبذة مختصرة عن المراسلات بوصفها مصدراً أساسياً في دراسة التاريخ السياسي والحضاري.
- ٢- التعريف بالمراسلين: العالم أبي العباس المقرئ والخطيب مفتي الحرمين الشريفين عبدالرحمن بن مرشد.
- ٣- التعريف بالرحلة، وهي مصدر المراسلات بين العالمين.
- ٤- عرض قضايا المراسلات وتحليلها وبيان أثرها في تدوين تاريخ شبه الجزيرة العربية بعامة وتاريخ الحجاز بخاصة. ولتحقيق هذا استعين بالمنهج التاريخي القائم على الوصف والتحليل لأجل استقراء كنه خطاب تلك المراسلات، التي وردت ضمن النبذة الأخيرة من الرحلة تحت عنوان: (إتحاف المنشي والمنشد ببعض كلام الإمام مفتي الحرمين ابن مرشد). وقبل الولوج في تفاصيل تلك المراسلات تنبغي الإشارة إلى لمحة موجزة عن أهمية المراسلات في الكتابة التاريخية.

## أولاً: المراسلات مصدر للكتابة التاريخية

كثيرة ومتنوعة هي المظان التي يستقي منها المؤرخ عند عزمه تدوين الحقائق التاريخية وتفسيرها، فتجده ينهل من كل لون ونوع لتحقيق المراد، والمراسلات أحد الأنواع التي وُضِّعت مصدرًا يعول عليه عند توافره، لما يحمله من مادة علمية تفيد في الكشف عن القضايا التاريخية والحضارية لتاريخ المسلمين، إضافة إلى أنها تُظهِرُ مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية في التعبير.

وتنقسم هذه المراسلات إلى ديوانية وإخوانية<sup>(٢)</sup>، ويقال للديوانية (السلطانية)، وهي التي تختص بمصالح الأمة وقوام الرعية، وتصدر عن ديوان السلطان. ويعود تاريخ أدب الترسل في الأدب العربي إلى مرحلة صدر الإسلام، إذ برز الاهتمام بهذا النوع من الفن النثري حين ظهرت الحاجة إلى توجيه الرسائل للأمصار والبلدان المختلفة، بغرض الدعوة إلى الدين الجديد، أو توجيه القادة في مهمات عسكرية. وعلى سبيل الذكر رسائل النبي محمد ﷺ، إلى رؤساء القبائل والملوك والأمراء، ثم اتسع بعدها أدب الترسل في العصر الأموي، فأنشأ معاوية بن أبي سفيان رِصَالَهُ ديوان الرسائل للعناية بشؤون المكاتبات التي تصدر عنه إلى ولاته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة في أول الأمر يتولى بنفسه إملاء الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة،

(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار

الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م، ٨/ ١٢٦.

وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغلب عليه السهولة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنع كما حدث ذلك لاحقاً، وشهد فنُّ الكتابة نقلةً كبيرةً في عهد هشام بن عبدالملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر حكام بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبدالحميد بن يحيى الكاتب، فقد عُرف عبدالحميد بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل: "بدأت الكتابة بعبدالحميد"<sup>(٣)</sup>.

بلغ علم الترسل ذروته في العصر العباسي الأول، إذ تحولت إليه الثقافات المتنوعة بحركة الترجمة التي شهدت ازدهاراً كبيراً في هذه الحقبة التاريخية، وكان هذا إيذاناً بتعدد شعب النثر العربي وفروعه على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة، ومن يلقي نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلحظ أنها انحصرت في تصريف أعمال الدولة، وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان، وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجذب، وعهود الخلفاء ووصاياهم للأبناء والوزراء والحكام في تدبير

(٣) قيل إنه من أهل الأنبار بالعراق، وسكن الرقة وكان معلماً في الكتاتيب، وكان ذا فصاحة ومهارة بيانية، فالتحق بديوان هشام بن عبدالملك، فأعجب به، وما زال به إلى زمن حكم مروان بن محمد الأموي. انظر: الجهشيارى، أبا عبدالله بن محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تقديم: حسن الزين، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٩٨٨م، ص٤٩؛ ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، دار المعارف، ١٩٦٣م، ص٤٧٣.

السياسة والحكم، وما يتصل بأحكام العلاقات الخارجية مع الأمم المعاصرة من عهود صلح أو سفارات<sup>(٤)</sup>، ويمتاز هذا النوع من حيث الصياغة الأسلوبية بالوضوح والاختصار.

أما القسم الآخر من المراسلات فيُعرف بالإخوانية أو الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، والمراد بها المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء، وهي تواصل مع الآخر وتعبيرٌ عن الذات الكاتبة مغالبة منها للبعد والغياب، وهي وسيلة اتصال طبيعية بين صديقين غائبين ومحادثة مكتوبة بين شخصين متباعدين، وطبيعتها تحددية لنوع العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، وقد كشف هذا النوع من الترسل أنها جرت بين نظيرين وبين مرید وشيخ بما يحملة من موضوعاته الكبرى والصغرى.

وقد نما هذا النوع من الترسل في تاريخ الأدب العربي نموًّا واسعًا، لكونه قائمًا بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء وغيرهم، فتبرز فيها العلاقات الإنسانية المتباينة مجسدة فيها معاني الأخوة والمحبة المتبادلة بين النخبة المثقفة من العلماء والأدباء، فتظهر ملامح شخصياتهم وثقافتهم.

ويضاف إلى ذلك قيمة هذه المراسلات الأدبية والاجتماعية والعلمية، ودون إغفال قيمتها التاريخية، وهي تضم أكثر من سبعة عشر نوعًا، ويمكن ذكر بعضها وهي: التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات، والتشوق، والاستزارة، واختطاب المودة، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار، والشكوى، واستمache الحوائج، والشكر، والعتاب، والسؤال عن حال المريض، والأخبار،

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٨٦.

والمداعبة<sup>(٥)</sup>. ويندرج تحت بعض هذه الأنواع أنواع أخرى كثيرة. وبعضها مطبوع ومتداول كرسائل الجاحظ وإخوان الصفا وابن حزم وأبي مطرف المخزومي<sup>(٦)</sup>. في حين بقي بعضها الآخر منشوراً في ثايا كتب الأدب الشهيرة أو في كتب الرحلة كما هو حال هذه المراسلات، التي تمثل مادة هذا البحث فيما أفرز من نصوص الرسائل الإخوانية المكتوبة في القرن ١١هـ/١٧م، وهذه الرسائل مكاتبات جرت بين العالم والأديب المقري ومفتي الحرمين الشريفين القاضي وعبدالرحمن بن مرشد لدواعٍ مختلفة في مناسبات متعددة تكشف عن أخبار الديار بشبه الجزيرة العربية من زمن حياة المتراسلين.

### ثانياً: التعريف بالمتراسلين

#### ١- العالم الأديب المقري التلمساني (٩٨٦-١٠٤١هـ/ ١٥٧٨-١٦٣١م):

هو أبو العباس أحمد<sup>(٧)</sup> بن محمد المقري التلمساني<sup>(٨)</sup>،

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٩ وما يليها؛ ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٤٩١.

(٦) عروة، عمر، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصة للنشر، الجزائر، د. ت، ص ٣٤.

(٧) يؤكد المقري أن اسمه أحمد، فأورد بيتاً شعرياً ما يؤكد ذلك وهو قوله: أحمد ذو القصو \*\*\* ر المقري إذا انتسب. انظر: المقري، أبو العباس أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ الشلبي، مقدمة المؤلف، ٣/١.

(٨) ولد بمدينة تلمسان الواقعة في غرب الجزائر الحالية التي كانت عاصمة لدولة بني زيان أيام حكم السلطان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، وتقلد منصب قاضي الجماعة =

واحد من أعلام القرن الحادي عشر الهجري / القرن السابع عشر الميلادي. وهو ينتسب إلى أسرة ذات تاريخ عريق، ذاع صيتها في العلم والأدب والثروة التي اكتسبتها من شركتها التجارية<sup>(٩)</sup>.

وكشف المقرري في مقدمة نفعه<sup>(١٠)</sup> عن هويته، ذاكراً فيها اسمه كاملاً، ومكان ولادته ومذهبه والأماكن التي حلَّ بها، والأماكن التي تلقى فيها تعليمه أو تولى التدريس بها، في قوله: "فيقول العبد الفقير... أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقري، المغربي المالكي الأشعري، التلمساني المولد والمنشأ والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة..."<sup>(١١)</sup>، وهذا يوحي أن حياة المقرري ارتبطت بعنصر التنقل والارتحال من بلد إلى آخر، وهو عامل مهم ساعده على اكتساب الشهرة بين الناس أينما حل.

= بمدينة فاس وتلمسان، وكان مشاوراً إليه بالمغرب، يقوم أتم قيام على العربية والفقه والتفسير والتاريخ والأدب، ويشارك في الأصلين والجدل والمنطق. انظر: المقرري أبا العباس أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، ومحمد بن تاويت، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية - الإمارات العربية المتحدة، ١٩٧٨م، ٢٠٤/٤.

(٩) المقرري، نفع الطيب، ٣٠٤/٥-٣٠٥.

(١٠) المصدر نفسه، ٩/١-١٣.

(١١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. وتراجع مقدمة كتاب أبي العباس أحمد بن المقرري التلمساني، فتح المتعال في مدح النعال، دار القاضي عياض للتراث، القاهرة، ص ١٤-١٨. وتتنظر تفاصيل سيرة المقرري عند: السملالي، العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ٣٠٨/٢-٣١٢.

ليس الهدف في هذا البحث بسط القول عن حياة هذا العالم، فهو غني عن التعريف، وسيرته مبسوسة في كثير من المصادر<sup>(١٢)</sup>، إذ تتصدرها مؤلفات المقري نفسه، إذ كفانا عناء التعريف به ضمن كتبه كنفح الطيب، وروضة الآس، وأزهار الرياض، وفتح المتعال، وكتابه الرحلة، الذي يعدُّ مصدر هذه المراسلات، فقد تضمّن مجموعة مراسلات حصلت بينه وبين الإمام الجليل عبدالرحمن بن مرشد مفتي الحرمين الشريفين بالحجاز.

هذا، وقد كتب عنه معاصروه شيئاً كثيراً، فهذا الخفاجي في ريحانته بعد أن ترجم له تلهف أشد التلهف للقائه، غير أن المنية حالت دون ذلك، فقال: "فسبقت المنيا الأمانى، وجاءني نعيه من كنت أرجوه بشير التهاني"<sup>(١٣)</sup>. إضافة إلى اهتمام الباحثين المحدثين<sup>(١٤)</sup> بسيرته الثرية، إذ ترك المقري

(١٢) الإفرائي، محمد بن الحاج بن محمد بن عبدالله الصغير، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق: عبدالمجيد الخيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، دار البيضاء، المغرب، ص ١٤٣-١٤٦؛ عبدالحى بن عبدالكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، باعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د. ت، ٥٧٦/١.

(١٣) الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد الحلوب بن محمد، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلوب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٧٦/٢.

(١٤) تناول عدد من الباحثين المحدثين سيرة العلامة المقري ومؤلفاته بالدراسة، ومنهم من أفرده بكتاب مستقل، يراجع في هذا عبدالكريم، محمد، المقري وكتابه نفع الطيب، منشورات دار مكتبة الحياة، =

في كل محل أثرًا يذكره، فإنه لم يُعرف في عصره بلون واحد من ألوان العلم لتبقى أخباره محفوظة عند صنف من العلماء، بل إنه كان حافظًا للحديث ثقة في روايته، مفتيًا في الفقه متطلعًا من فروع وأصوله، عارفًا وقُدوة في علم التوحيد ومشكل العقائد، خطيبًا مدرسًا، وأخيرًا أديبًا ومؤرخًا، وهذا كان له صدَى عميق عند المهتمين لمعارفه من المحدثين<sup>(١٥)</sup>.

وسطعت فضيلته العلمية في أبرز الحواضر الإسلامية كمدينة تلمسان وفاس، ومصر والحجاز وبلاد الشام إبان احتلال العثمانيين الأتراك لها. وقد شهد له معاصروه بالإمامة والفضل في الفقه وأصوله، وفي الحديث وعلوم القرآن، وفي علوم العربية<sup>(١٦)</sup>، وتدل آثاره الحسان على علم وفهم، ورواية ودراية، وإتقان وإحسان، وفي السياق نفسه نورد تعريفًا للعالم المحببي<sup>(١٧)</sup> وهو يترجم له في قوله: "هو

= بيروت، د. ت، ص ٢٦٦-٢٦٩؛ الحبيب الجنحاني، المقرئ وكتابه نضح الطيب: دراسة تحليلية، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٥٥م، ص ٦-٢٦؛ محمد عبدالغني حسن، المقرئ وكتابه نضح الطيب، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت، مصر، ص ١٧٤.

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٢-٣٨؛ زمامة عبدالقادر، أبو العباس المقرئ التلمساني وكتابه الفريد روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، مجلة المجمع العلمي العربي، مج، ٢٩، ج، ٢، السنة ١٩٦٤م، ص ٣٩٢.

(١٦) الكتاني، عبدالحى، فهرس الفهارس، ٥٧٦/١؛ القادري، محمد بن الطيب، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجى، وأحمد توفيق، منشورات الجمعية المغربية للنشر والترجمة، ٢٩٣-٢٩٥.

(١٧) هو محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد محب =

أبو العباس المقري التلمساني المولد المالكي المذهب، نزيل فاس ثم القاهرة حافظ المغرب جاحظ البيان، ومن لم يُر نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة، وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات، وله المؤلفات الشائعة<sup>(١٨)</sup>. وامتدحه الخفاجي في ريجانته بقوله: "فاضل لغر المناقب مشرق، وبدر لعلو همته سار من المغرب للمشرق. وهو رفيق السداد، وبيت مجد منتظم الأسباب ثابت الأوتاد...، وقد بوّاه الله في الحديث تكرمة بين العليا والسند، وجدّ في إرث المجد بغير كلاله عن أكرم أب وجدّ"<sup>(١٩)</sup>.

وقد عرف المقري علومه من وعاء خيرة العلماء التلمسانيين، إذ تتصدر أسرته السبق في تلقينه أسس المعرفة، فهو ابن أخ العالم أبي عثمان سعيد المقري مفتي تلمسان وكبير مشايخها، الذي كان عمدته في العلم الأول،

= الحنفي، الحموي الأصل الدمشقي المولد والدار، ولد بدمشق، وعاش ما بين ١٠٦١-١١١١هـ / ١٦٥١-١٦٩٩م، وصفه رضا كحالة بقوله: "مؤرخ وأديب شاعر لغوي مشارك في بعض العلوم"، ومن آثاره: الذيل على ريجانة الشهاب الخفاجي، سماه نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة في التراجم، وخلاصة الأثر في تراجم القرن الحادي عشر، وديوان شعر، وقصد السبيل فيما في لغة العرب من الدخيل، والدر الموصوف في الصفة والموصوف. يراجع: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ١٤٦/٣.

(١٨) المحيي، محمد أمين بن فضل الله محب الدين، خلاصة الأثر في

أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر بيروت، لبنان، د. ت، ١/٣٠٢.

(١٩) الخفاجي، ريجانة الألبا، ١٧٥/٢-١٨٢.

وكان سعيد هذا شيخاً عزيز العلم مبرزاً في فنونه، ولا سيما الفقه والحديث، وكانت صلته بفاس وشيوخ العلم بها وثيقة، والمراسلات بينه وبينهم قائمة في الشؤون العلمية، وهو الذي كان يزين لابن أخيه الرحلة، ويحببها إليه ويرغبه في أن يكمل بها المعارف والعلوم التي حصل عليها ببلده، ويروم، إضافة إلى ذلك أن ييوءه مقعداً بديوان السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذهبي الذي كانت شهرته طبقت يومئذ آفاق المغرب والمشرق<sup>(٢٠)</sup>.

وحين ارتحل المقرئ من تلمسان نحو فاس بغرض الاستزادة في العلوم جلس إلى عدد من العلماء بالجامع المبارك والمدارس التابعة له، ولما قدم الفقيه إبراهيم بن محمد الأيسى أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي، أثار انتباهه نبوغ المقرئ، فاصطحبه معه إلى مراكش فقدمه إلى السلطان، وبهذه المدينة التقى بالعالمين أحمد بن القاضي، وأحمد بابا التمبكتي<sup>(٢١)</sup>.

والمتتبع لسيرته العلمية تستوقفه توزعها بين حواضر إسلامية يشهد لها التاريخ أنها كانت مراكز ثقافية يشد لها الرحال لما احتوته من معالم ومظاهر التحضر والتفتح والحرية الفكرية، مثل المدينة وتلمسان، وفاس، ومراكش والقاهرة والقدس ودمشق، فقد ترك في كل منها خيراً أو أثراً أو تلميذاً أو شيخاً أو صديقاً يروي للناس حديثه<sup>(٢٢)</sup>.

(٢٠) السملالي، الإعلام، ٢/٣٠٩.

(٢١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٢) زمامة، أبو العباس المقرئ التلمساني، ص ٣٩٢.

ترك المقري تصانيف متعددة المجالات، تتناول معارف عصره، وقد دونها في تلك الحواضر في فنون الأدب والتاريخ والفقه، وهي بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وسنرصدها ما توافر منها عند جل الباحثين<sup>(٢٣)</sup> لتراث هذا العالم الجليل، وهي على النحو الآتي:

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.
- إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة.
- حسن الثنا في العفو عمن جنى.
- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.
- فتح المتعال في مدح النعال.
- نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب.
- إتحاف المغري بتكميل شرح الصغرى.
- إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس الواردة من سيدي محمد بن أبي بكر بركة الزمان وبقية الناس.

(٢٣) ممن ترجم للمقري وعُني بذكر إنتاجه العلمي: عبدالكريم، المقري وكتابه نوح الطيب، ص ٢٦٦-٢٦٩؛ الجحاني، المقري وكتابه نوح الطيب، ص ١٧٤. دون إغفال بعض مقدمات المحققين لكتاب نوح الطيب، كمقدمة الدكتور: إحسان عباس ١٩٦٨م، ومقدمة المحقق: مصطفى السقا وآخرين ١٩٧٨م، وغيرها كثير مما تناول مؤلفات المقري دراسة وتحقيقاً ضمن البحث الأكاديمي على وجه التحديد.

- حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.
- رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق. وهذا الأثر هو مصدر تلك المراسلات التي جرت بين المؤلف ومفتي الحرمين عبدالرحمن بن مرشد.

## ٢- التعريف بالعالم الخطيب المفتي عبدالرحمن بن مرشد (٩٧٥-١٠٣٨هـ / ١٥٦٧-١٦٢٨م):

هو عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد، أبو الوجاهة العمري نسباً، المعروف بالمرشدي الحنفي مذهباً، مفتي الحرم المكي وعالم الحجاز، المولود بمكة سنة ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م، والمتوفى مقتولاً خنقاً في سنة ١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م. وقد خص له العالم المحبي ترجمة مستفيضة عن سيرته العلمية وأخباراً عن مهنته قاضياً للحنفية، إذ جمع معلومات وأتبعها بدلائل عنها، فوردت عنده ضمن علماء المسلمين للقرن العاشر الهجري الموافق للخامس عشر الميلادي<sup>(٢٤)</sup>. ولكونه من أسرة علمية فقد تلقى علومه الأولى على يد والده في سن مبكرة، فختم القرآن الكريم وحفظ كثيراً من المتون، كالألفية والأربعين حديثاً للنووي والجزرية والشاطبية، وقطعة من منظومة التلخيص للجلال السيوطي وغيرها. وأخذ العلم عن شيوخ عصره، وبخاصة علماء مكة المكرمة والواردون إليها، ومن جملتهم:

- الشيخ عبدالرحيم بن حسان، قرأ عليه الآجرومية وشرحها للفاكهي، ومقدمة الشيخ محمد الحطاب، وشرح القواعد الصغرى للشيخ خالد الأزهرى.

(٢٤) المحبي، خلاصة الأثر، ٢/٣٦٩.

- القاضي علي بن جار الله بن ظهيرة الحنفي، أخذ عنه الفقه والفرائض، وقطعة من شرح المنار، وشرح النخبة لابن حجر العسقلاني في دراية الحديث، وشرح السراجية في الفرائض لمير باد شاه الحنفي<sup>(٢٥)</sup>.
- الملا عبدالله السندي، قرأ عليه آداب البحث.
- الشيخ محمد بن علي الركروك الجزائري، أخذ عنه علم العروض، وقرأ عليه شرح السيد الغرناطي على الخزرجية، فأجازه إياه مع رواية الصحيحين.
- الإمام شمس الدين محمد الرملي الشافعي، روى عنه صحيح البخاري.

وشرع العالم عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد في الاشتغال بالفتوى في حدود سنة ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م، إذ درس صحيح البخاري بمدرسة الوزير محمد باشا الشهير بالشهيد سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م<sup>(٢٦)</sup>. ودرّس في المسجد الحرام ابتداءً من سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م، وقد تولى التدريس للحنيفة في مدرسة السلطان سليمان الواقعة بجوار المسجد الحرام، التي عرفت بالمدرسة السليمانية<sup>(٢٧)</sup>، وكان يدرس فيها

(٢٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٢٧) أنشأ المدرسة السليمانية الحنفية السلطان سليمان جوار المسجد الحرام برسم علماء المذاهب الأربعة، وكان العالم عبدالرحمن المرشدي أول من وليها منهم ودرّس بها، ثم وليها بعد وفاته خير الدين الرومي الحنفي، ثم قررها بعده شريف مكة الشريف حسن للقاضي علي بن جار الله الحنفي. يراجع تفاصيل من تولوا فيها التدريس: المحبي، خلاصة الأثر، ص ٣٧١.

تفسير البيضاوي، وذلك في سنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٧م.  
وتولى إفتاء الحنفية بمكة، وعمره لم يتجاوز الثلاثين  
عاماً، فقد ورد إليه في سنة ١٠٣١هـ / ١٦٢١م تفويض  
بقضاء مكة المكرمة، وتولى إمامة المسجد الحرام وخطابته  
والإفتاء السلطاني سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م، فكانت ترد إليه  
الخلعة السلطانية المحمولة لمفتي مكة في كل عام بصحبة  
الركب المصري، وهو كما قال فيه ابن معصوم: "انتهت إليه  
رئاسة العلم بالبلد الأمين، فتصدر وهو منتجج الوافدين،  
منه تقتبس أنوار أنواع الفنون، وعنه تؤخذ أحكام المفروض  
والمسنون، تشد الرحال إلى لقائه، ويستشق أرج الفضل  
من تلقائه"<sup>(٢٨)</sup>. ونستحضر في هذا المقال شعر صديقه  
العالم المقري التلمساني صاحبه في المراسلة حين مدحه  
قائلاً<sup>(٢٩)</sup>:

شيخُ الشيوخِ واحدِ الزمانِ  
مفتي الأنامِ عابدُ الرحمنِ  
بحرُ العلومِ جامعُ الأنحاءِ  
من خصَّ بالإفتاءِ في البطحاءِ  
وحازَ في أعلامِ أرضِ الحرمينِ  
وغيرها فضلاً وسبقاً دون ميين

(٢٨) الحسنى، ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل

مصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ص ٦٥-٧٠.

(٢٩) المقري، رحلة المقري، ص ٦٨.

فَمَدَّحَهُ يُعْجِزُ كُلَّ مَنْشِدٍ  
 وَكَيْفَ لَا وَهُوَ أَجَلُّ مُرْشِدٍ  
 ذُو الْكُتُبِ الصَّحِيحَةِ الْمَحْرَرَةِ  
 وَالْحُطْبِ الْفَصِيحَةِ الْمَقْرَرَةِ  
 وَالْفَضْلِ وَالتَّبْرِيزِ فِي الْإِنْشَاءِ  
 عَلَى مَعَانِي قُوَّةِ الْإِنْشَاءِ  
 وَالسَّبْقِ فِي شَأْوِ الْعُلَى وَالْمَجْدِ  
 وَالْفَهْمِ وَالْعِلْمِ الْغَزِيرِ الْمَجْدِ  
 إِنْ هَامَ مِنْ هَوَاهُ أَهْلُ نَجْدِ  
 فَكُلَّ إِقْلِيمٍ لَهُ ذُو وَجْدِ  
 لَا زَالَ فِي رَتْبَتِهِ الْمَنِيْفَةِ  
 يَنْشُرُ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ  
 وَيَسْمَعُ الرِّوَاةَ مِنْ إِمْلَائِهِ  
 مَا يَقْتَضِي التَّبْرِيزَ فِي عِلَائِهِ

وكان الشيخ عبدالرحمن بن مرشد يعد من كبار شعراء زمانه، وله قصائد طويلة تدل على قوة الطبع على النظم، وقد تولى ديوان الإنشاء للشريف محسن بن الحسين سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م، وبعد وفاة هذا الأخير، قام مكانه الشريف أحمد بن عبدالمطلب، فقبض على الشيخ لخلاف دب بينهما، وسجنه ونهب داره وكتبه، وطلبه من السجن يوماً وهو غاص بأهله، وعاتبه عتاباً شديداً، فأجابه بأحسن جواب وأشد ثبات، فأعادته إلى السجن، وقال للحاضرين: "والله إنني أعلم

وأعتقد أنه من أفضل علماء زمانه وأتقى أهل عصره"، واستمر في السجن إلى يوم النحر ليلة الجمعة ١١ من ذي الحجة سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م، فأمر بخنقه، فقتل وغسل وصلي عليه ودفن في مقابر الشبيكة، تاركًا تاريخًا حافلًا بالمنجزات<sup>(٣٠)</sup>.

وقد ترك عبد الرحمن بن مرشد عددًا من المؤلفات تصب أغلبها في علوم اللغة وآدابها، وقد أوضح المترجم له مناسبات ومقاصد التأليف لكل منها<sup>(٣١)</sup>، وهي على التوالي<sup>(٣٢)</sup>:

- زهر الروض المقتطف ونهر الحوض المرتشف في التاريخ.
- أرجوزة في علم الصرف، طبعت مع شرحها المسمى (فتح الخبير اللطيف).
- شرح المرشدي على عقود الجمان.
- في المعاني والبديع والبيان، للسيوطي (جزآن).
- تعميم الفائدة بتعميم سورة المائدة.
- مناهل السمر في منازل القمر.
- براعة الاستهلال وما يتعلق بالشهر والهلال.
- منظومة في علم التصريف من خمسمئة بيت سماها ترصيف التصريف.
- شرح على منظومته السابقة سماه فتح اللطيف.

(٣٠) المجبي، خلاصة الأثر، ٣٧١/٢.

(٣١) المصدر نفسه، ٣٧١/٢.

(٣٢) المصدر نفسه: ٣٦٩-٣٧٦؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار

العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ط٥، ٣٢١/٣.

- كتاب الوافي في شرح الكافي في علمي العروض والقوافي.
  - رسالة مناهل السمر في منازل القمر وشرحها.
  - رسالة تعليق بآية الكرسي.
  - فتح مسلك الرمز شرح مناسك الكنز.
  - وقوف الهمام المنصف عند قول الإمام أبي يوسف.
- وإضافة إلى ما ذكر من أعماله، وولايته للفتوى والقضاء والإمامة: "كان الشيخ عبدالرحمن المرشدي خطاطاً، وجميع ما على أبواب المسجد الحرام والمدارس السلطانية العظام من الآيات والطرازات بخطه"<sup>(٣٣)</sup>.

والحاصل أن الشيخ العالم عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد لقي من سمو الشأن وعلو المرتبة ما لم يلقه أحد من معاصريه بالحجاز، وقد قدم المؤرخ الحسن البوريني شهادة في حقه، فأثنى عليه في قوله:

"اجتمعت به في مكة واختبرته، فرأيت عربيته متينة وحركته في فهم العبارات جيدة، وبالجملة فهو الآن عين مكة وعالمها، وإليه يرجع عامها وحاكمها"<sup>(٣٤)</sup>.

### ثالثاً: التعريف بمصدر المراسلات بين العالمين (رحلة المقري)

إن التعريف بمصدر هذه المراسلات التي جرت بين العالمين أي المؤلف المقري صاحب الكتاب ومفتي الحرمين

(٣٣) المحبي، خلاصة الأثر، ٢/٣٦٩-٣٧٦.

(٣٤) المقري، رحلة المقري، ص ٣٧١.

الشريفيين بالحجاز عبدالرحمن بن مرشد أمر ضروري لأهمية المصدر، الذي ظل إلى حين غير بعيد في حكم الكتب المفقودة للمقري، وقد أكد محقق هذا الكتاب الباحث محمد بن معمر<sup>(٣٥)</sup> أنه ليس ثمة أدنى شك في نسبته إلى أبي العباس أحمد المقري، إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكره أو الإشارة إليه، سواء من توقيعاته في آخر رسائله وقصائده التي كان يبعث بها إلى غيره، أو ما كان يبعثه غيره إليه، أو في سياق الحديث عن نفسه<sup>(٣٦)</sup>.

وقد توصل محقق هذا الكتاب<sup>(٣٧)</sup> إلى أن المخطوط كان في مكتبة الشيخ حميدة بن محمد العمالي قبل أن يؤول إلى المستشرق الفرنسي جورج ديلفان ١٨٩٨م (G.DELPHIN)، وهو ما يستفاد من التوقيع المقيد على إحدى صفحات المخطوط بخط وحبر مخالفين، والعنوان مأخوذ من الفهرس المكمل للمخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم (٣١٩١) أهده حفيد ذلك المستشرق الفرنسي أستاذ اللغة العربية بجامعة الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي إلى السفارة الجزائرية بباريس، ونقل المخطوط بعد ذلك إلى المكتبة الوطنية بالجزائر، ولا يستبعد المحقق نفسه أن عنوانه من وضع هذا المستشرق الفرنسي<sup>(٣٨)</sup>.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٥-٩.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٥-٩.

(٣٨) المصدر نفسه، الصفحات نفسها.

ويستفاد من محتوى الكتاب أنه من المؤلفات الأخيرة التي وضعها المقري مقارنة بتأليف كتابه النوح، الذي اقترحه عليه العالم أحمد بن شاهين، فقد استدعاه إلى بيته في المحرم من سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م حين زار دمشق للمرة الثانية، وقبل عودته إلى القاهرة ووفاته بها في جمادى الآخرة من السنة نفسها، فالمدة الواقعة بين التاريخ الوارد في الكتاب وبين تاريخ وفاته أقل من خمسة أشهر<sup>(٣٩)</sup>.

وما يلحظ عمومًا هو أن الرحلة لم تكن مجرد مشاهدات سياحية كما هو الشأن في أدب الرحلات، ولم تكن أيضًا صادرة عن حاجة سياسية أو طائفية، وإن خالطت الرؤية الذاتية التي اتسعت عبر الرحلة لتغدو معبرة عن السياسة والاجتماع، فالمقري لم يُعنَ كثيرًا بوصف ما شاهده من مظاهر العمران في المدن التي زارها في المشرق أو المغرب، ولعل ذلك يعود إلى أن هذه المظاهر أضحت من الأمور المعروفة لدى الناس، فلا تصوير للمؤسسات السياسية أو الاقتصادية، ولا وصف للآثار والعمران وتحديد المسالك ولا الممالك، ولا وصف للشوارع والحدائق والساحات العامة، وإنما التفت المقري إلى أعماق من ذلك، إلى مظاهر الحياة العلمية، فوصفها وصفًا ينم عن خبرة وثقافة عاليتين. وكان ذلك قصده في قيد رحلته، التي خرجت عن محددات نمطية الرحلة، ذلك الجنس الأدبي الواصف للمكان، المؤرخ للتفاصيل، الزاخر بالتراث، إلى رحلة تتراتب فيها الرسائل

والأسماء، والألغاز والأشعار والمدائح والمراثي، وتناوب على بنائها النثر مرة والشعر أخرى.

وإلى جانب تلك المراسلات التي كانت بين المؤلف ومفتي الحرمين، تضمنت الرحلة مجموعة من المكاتبات والمراسلات والمساجلات بين المؤلف وأعيان عصره من أمراء بلاد الحجاز وأشرفها، تفيد في دراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية وبالتحديد بلاد الحجاز، وقد اكتفيت بعناوينها، وهي على النحو الآتي:

- ١- كتاب من سلطان الحرمين لي حين ولي الملك سنة ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م. (ص ٥٤-٥٥).
- ٢- مدح المؤلف شريف مكة إدريس بن محسن<sup>(٤٠)</sup>، وابن أخيه محسن. (ص ٦٦-٦٨).
- ٣- عزم المؤلف على الحج<sup>(٤١)</sup> في سنة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م. (ص ٧٠).
- ٤- زيارة المؤلف للمدينة المنورة<sup>(٤٢)</sup> في سنتي ١٠٣٣-١٠٣٤هـ / ١٦٢٣-١٦٢٤م. (ص ٨٤-٨٥).

(٤٠) إدريس بن أبي نمي شريف مكة، ولد سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م كان شهماً تهابه الملوك والأشراف، وكان يكنى أبا العون، شجاعاً حسن الخلق، ولي مكة سنة ١٠١١هـ / ١٦٤٠م بعد أخيه أبي طالب، اختلف مع ابن أخيه محسن بن الحسين فقام عليه إلى أن استقل بالأمر دونه سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م، وهي السنة نفسها التي توفي فيها الشريف إدريس. انظر: المحبى، خلاصة الأثر، ١/ ٣٩٠-٣٩٣.

(٤١) صرح المؤلف في رسالته إلى محمد الدلائي سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م بعدد الحجرات إلى الديار الحجازية، إذ كان دخوله إلى مكة خمس مرات، ودخل المدينة المنورة سبع مرات. انظر: المقري، نفع الطيب، ١/ ٤١-٥٦.

(٤٢) المصدر نفسه، ١/ ٥٦.

- ٥- إجازة المؤلف للشيخ حنيف الدين. (ص ٨١).
- ٦- إجازة المؤلف لخطيب الحرم تاج الدين المالكي. (ص ٩٠).
- ٧- في إخراج قريش صبيانها للإرضاع في البادية. (ص ١٠٦).
- ٨- إنشاد وإنشاء لي (المقرئ) (ص ١٣٧).
- ٩- المؤلف يجيز الفقيه محمد بن نور الدين الرشيد. (ص ١٤٩).

وبهذا فقد بدت رحلة المقرئ عميقة في احتوائها رحلة التاريخ عبر عدد من المراسلات جرت بينه وبين صفوة من أعلام الدين والسياسة في العالم العربي الإسلامي، وكان ذلك قصده في قيد رحلته، التي خرجت عن محددات نمطية الرحلة.

### رابعاً: عرض قضايا المراسلات وتحليلها

لا يمكن بأي حال من الأحوال الوقوف عند تاريخ محدد حول بداية التواصل بين العالمين، غير أننا لا نستبعد أن تكون سنة ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م هي السنة التي جمعت بين العالمين لأن العالم المقرئ أدى فيها فريضة الحج، فدخلها بحراً من طريق مصر بعد مغادرته فاس المغربية<sup>(٤٣)</sup>، ومنذ ذلك التاريخ دأب على الرحلة إلى الحرمين الشريفين من القاهرة التي استقر فيها<sup>(٤٤)</sup>. فكان دخوله مكة المكرمة للحج خمس مرات، وزيارته للمدينة المنورة سبع مرات، وهي المدة التي كان فيها العالم عبدالرحمن بن مرشد يدرس في مدرسة

(٤٣) المصدر نفسه، ١/٣٣.

(٤٤) المصدر نفسه، ١/٥٦.

السلطان سليمان الواقعة بجوار المسجد الحرام، التي تُعرف بالمدرسة السليمانية، إلى أن تولى الإفتاء بالحرمين الشريفين، كما أسلفنا الذكر.

وقد توالى المراسلات بين العالمين لمدة من الصعب حصرها، غير أن العالم المقري التلمساني قد دون بعضها مقيداً زمن ورودها إليه، واختصر بعضها، واكتفى بما كان يراه مهمّاً أحياناً، أو لقصور ذاكرته حسب تصريحه في مرات كثيرة<sup>(٤٥)</sup>، وذيل بعضها ضمن الرسائل المقيدة زمنياً، فاستحال معها تدقيق تاريخ المراسلة، وهذا مقيد في رحلته.

احتوت النبذة الأخيرة من كتاب الرحلة للمقري حسب ترتيب محقق الرحلة مجموعة من المراسلات التي جرت بين العالمين ما بين سنتي ١٠٣٤-١٠٣٦هـ / ١٦٢٥-١٦٢٦م، التي عنونها المؤلف ب: (إتحاف المنشي والمنشد ببعض كلام الإمام مفتي الحرمين عبدالرحمن بن مرشد) على معلومات تاريخية تتعلق بأرض الحجاز وبلاد اليمن وموانئهما في البحر الأحمر في السنوات المقيدة بهذه الرسائل، وهي غير مرتبة زمنياً، مما يبين أن المحقق لم يدخل عليها أي تغيير، وقد وردت عناوينها بهذه الصياغة ضمن الكتاب، وهي على النحو الآتي:

١- ابن مرشد يكتب إلى المؤلف سنة ١٠٣٥هـ.

٢- ويكتب إليه سنة ١٠٣٥هـ.

(٤٥) مثل قوله: "وقلت من قصيدة لم تحضرني الآن". انظر: المقري،

رحلة المقري، ص ٤٣.

- ٣- ابن مرشد يكتب إلى المؤلف معزياً عند فقدانه أختاً وابنة له سنة ١٠٣٤هـ.
- ٤- ويخاطبه (ابن مرشد) في السنة نفسها.
- ٥- ويكتب إليه (ابن مرشد) كتاباً كله نظم.
- ٦- وكتب ابن مرشد إلى المؤلف (المقرئ) أيضاً.
- ٧- خطاب ابن مرشد إلى المؤلف (المقرئ).
- ٨- خطاب ابن مرشد إلى المؤلف (المقرئ) ١٠٣٦هـ.
- ٩- وكتب المؤلف (المقرئ) إليه (ابن مرشد).
- ١٠- وكتب ابن مرشد إلى المؤلف (المقرئ).

رُتبت قضايا المراسلات حسب أهميتها بذكرها في كل مراسلة، إذ تتصدر القضايا المرتبطة بالحج وأحواله وتلك المتغيرات الاقتصادية التي حدثت على المستوى العالمي وتأثيراتها في المجال الحيوي للموانئ الواقعة على سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر في السنوات المقيدة بهذه الرسائل.

### ١- أخبار الحج ما بين سنتي ١٠٣٤هـ و ١٠٣٦هـ:

بمراجعة تلك المراسلات التي أبدى فيها العالمان الجليلان انشغالهما بالتطورات السياسية بشبه الجزيرة العربية، وما آل إليه الوضع المضطرب في العراق في سنة ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م، الذي عطل حجاج هذه البلاد عن أداء مناسكهم. وحملت الرسائل ذاتها مجموعة أخبار عن أحوال سير الحج بالحرمين الشريفين، فقد عني عبدالرحمن بن مرشد بالرد

عن ذكر أحوال الحج لاهتمام المرسل (المقري) بأخبار الوضع الأمني في ديار الحجاز عامة ومكة المكرمة والمدينة المنورة على وجه التحديد، وقد ورد جواباً يؤكد الإلحاح في المكاتبة حول أخبار الحج والحجيج في مثل هذا النص: "وأخبار الحجاج الواردين لمكة...، والواصلين إليكم، وربما نفاصلكم شيئاً منها في مكتوب يصل إليكم مع السيد علي بن هيزع، ونبينها، إن شاء الله، إذا خلا الذهن من الشواغل التي بها الفكر توزع..."<sup>(٤٦)</sup>.

وأضاف ضمن رسالة أخرى في قوله: "وإن سألتكم عن الحرمين فقد فاق في الحسن على البلاد ذات الهرمين، لم يشنا إلا بعدكم وما لقيه الأحياب بعدكم، فنسأل الله أن يمن بعودكم إليها، وعودكم فيها..."<sup>(٤٧)</sup>. وفي موطن آخر: "هذا وما تضمنه الكتاب الكريم والخطاب العظيم من أخبار تلك الديار وأهلها، وآثار هاتك الأقطار، فقد أنزلها حسن بيانكم منزلة المشاهد المحسوس وشخصها للسامع فرآها من خلال تلك الطروس..."<sup>(٤٨)</sup>.

ويبدو أن الاهتمام بأحوال الحج كانت محط اهتمام الزائر إلى بلاد الحجاز، لمعرفة أوضاع المنطقة تاريخياً وما حام حولها من تقلبات وعوارض مناخية وأمنية واقتصادية في القرن السابع عشر الميلادي، وهو ما استدعى السؤال عنها لتجنب الغبن الحاصل في إثرها، وعملية تأمين السبل عدت

(٤٦) المقري، رحلة المقري، ص ٢١٩.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(٤٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

هاجس الحجاج الوافدين عبر التاريخ إلى الحرمين الشريفين. ولأهمية أخبار الحج نجد حتى رسالة التعزية التي أرسلها مفتي الحرمين للعالم المقري عند فقدان هذا الأخير ولده محمد المكي<sup>(٤٩)</sup>، تحمل أخباراً عن الحج في قوله: "هذا، وإن سألتهم عن الأخبار، وحوادث هذه الديار، فهي بحمد الله بغاية من الأمان، ونهاية من السلامة عن حوادث الزمان، وقد وصل الحجاج من سائر الفجاج، وأدوا مناسكهم، وعمت المغفرة، إن شاء الله، طالحهم وناسكهم، ولم يقع ما يتوقع عند اختلاط الأجناس، واختلاف أصناف الناس من الشرور والفتن..."<sup>(٥٠)</sup>. إن النص فيه إشارة تؤكد أن أخبار مواسم الحج كانت تشد الانتباه، لما كان يعتري هذا الفرض من عوائق طبيعية وبشرية في هذه المرحلة التاريخية، وكتب الرحلة الحجازية قد فصلت في الموضوع.

وقد علق مفتي الحرمين عن انخفاض نسبة الحجاج الوافدين إلى موسم الحج لسنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٤م إلى الأسباب المناخية في قوله: "وقد كانت جموع الحجاج في هذه السنة جموع قلة، وكأن شدة الحر كانت سبباً لذلك وعلّة...، وكذلك كانت الحجة في غاية السكينة والاطمئنان ونهاية الاستقرار والأمان بحيث لم يسمع بعرفة ولا مزدلفة صوت صائح، ولم

(٤٩) كشف محقق الرحلة عن جوانب أسرية للمقري في الحديث عن عدد الزيجات والأبناء. مراجعة النص الثالث من الرسالة المؤرخة لسنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م وهي رسالة تعزية من مفتي الحرمين عبدالرحمن بن مرشد. انظر: المقري، رحلة المقري، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

يقع شيء من الأحوال الموجبة للفضائح، مع أن الدواعي لذلك متوفرة والبواعث عليه متكررة"<sup>(٥١)</sup>.

## ٢- الأوضاع الأمنية والسياسية والعسكرية بشبه الجزيرة العربية:

تضمنت المراسلات بين العالمين أخباراً عن تصاعد الاضطرابات في العراق، التي شهدت في هذه السنة تقلباً في أحوالها السياسية بسبب خضوعها للسيطرة الصفوية<sup>(٥٢)</sup> في المدة ما بين (١٠٣٣-١٠٤٨هـ / ١٦٢٣-١٦٣٨م) إثر ثورة بكر الصوباشي واستتجاده بهم<sup>(٥٣)</sup>. ركز الصفويون اهتمامهم

(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٥٢) ينتسب الصفويون إلى صفى الدين إسحاق الأربيلي (٦٥٠-٧٣٥هـ / ١٢٥٢-١٣٢٤م)، وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية في إيران، ومنه نسب الصفويون، التي بدأت بفرقة صوفية وانتهت بإمبراطورية صفوية. امتدت من أواسط آسيا الوسطى لتشمل إيران والعراق وقفقاسيا وقسمًا من الأناضول، غيرت النسيج الفكري والمذهبي لإيران. يراجع تفاصيل تاريخ الدولة الصفوية عند كل من: محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٣٥-٤٧-٥٧ وما بعدها؛ كولن ترنر، التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة: حسين علي عبدالستار، منشورات الجمل، ٢٠٠٨م، ص ٨٥.

(٥٣) وبالوقوف على التطورات التاريخية التي شهدتها العراق في هذه المرحلة من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي توصلنا إلى أن بغداد مرت بأوضاع صعبة، إذ قام رئيس شرطة هذه المدينة بكبير آغا بتمرد على الوالي العثماني وقتله واستبد بالأحكام، فأرسلت له الدولة العثمانية القائد حافظ باشا فحاربه وحاصره في دار السلام، غير أن بكبير آغا تعاون مع الشاه عباس ملك العجم، وعرض عليه تسليم المدينة، فأدخلوا البلاد في موجة من الفوضى =

في العراق الشمالي بعد سيطرتهم على بغداد بغرض حماية حدودهم من ناحية وإبعاد الخطر العثماني على طريق الحرير الرابط بين الأناضول وحلب. وكانت ردة فعل السلطان العثماني مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) أن قام بثلاث محاولات لاسترجاع العراق من الاحتلال الصفوي في معارك ضارية في عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م<sup>(٥٤)</sup>. وكان لهذا الوضع أثره في تعطيل حجاج هذه البلاد عن أداء مناسكهم، مما شد انتباه المفتي المرشدي، فأخبر بها صاحبه المقرئ عنها في قوله: "ولم يصل أحد من جانب العراق، لما فيه من الحروب والشقاق، ولم يتحرر من خبر السردار<sup>(٥٥)</sup> سوى إقباله عليه بالعسكر الجرار، فالله تعالى يمدّه بالفتح والظفر، والسلامة في الإقامة والسفر، وقد وصل جميع من في الركب سالمين،

= وعدم الاستقرار. انظر: رافق، عبدالكريم، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م، مكتبة التاريخ العثماني، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م، ص٢٠٩. (٥٤) أحمد الخولي، الدولة الصفوية - تاريخها السياسي والاجتماعي - علاقتها بالعثمانيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١م؛ أبو الحسن، عطر جي، الصفويون والدولة العثمانية، راجعه وقدم له: محمد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء ١/٦/٤١٤هـ؛ نورس، علاء موسى كاظم، العراق في العهد العثماني: دراسة في العلاقات السياسية ١٧٠٠-١٨٠٠م، بغداد، ١٩٧٩م، ص٢٣-٦١؛ المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٨٢. (٥٥) السردار لقب أطلق على الصدر الأعظم، إذ توجه للحرب دون مشاركة السلطان فيها، وكان يقال له السر عسكر أيضاً أي قائد الجيش. يراجع: صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص١٣٣.

ولثواب الرب غانمين، أعادهم الله إلى أوطانهم كذلك، وسهل لهم هاتيك المسالك...<sup>(٥٦)</sup>.

ويبدو أن هذا الوضع لم تنفرد به العراق بوصفها ولاية عثمانية، بل حتى بلاد اليمن كذلك مر تاريخها في ظل الاحتلال العثماني بسلسلةٍ من الحروب والمقاومة<sup>(٥٧)</sup>، إذ كشفت تلك الأخبار الصادرة في المكاتبات عن تصاعد الوضع الأمني والسياسي والعسكري بمنطقة شبه الجزيرة العربية، وبخاصة تلك التي تتعلق ببلاد اليمن والديار الحجازية في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، ومنها سيطرة الإمام المؤيد بالله (١٦٢٠-١٦٤٤هـ) على تعز في سنة ١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م، وكان لهذا الوضع أثره في خلخلة الأحوال واضطراب الأمن العام في هذه المناطق، بسبب الإمام المتغلب على بلاد اليمن، واستيلائه على أغلبها

(٥٦) المقرئ، رحلة المقرئ، ص ٢٢٥.

(٥٧) بسطت الدولة العثمانية سلطتها على بلاد اليمن، وتنقسم إلى مرحلتين، الأولى وهي مرحلة إيالة اليمن من عام ١٥٣٩م إلى ١٦٣٤م، والثانية، وهي ولاية اليمن من عام ١٨٧٢م إلى ١٩١١م. وانحصر الحكم العثماني بعض المناطق بها وهي: زبيد، والمخا، وعدن، أما المرتفعات الشمالية فلم تكن مستقرة، وتعرض العثمانيون لهجمات متكررة من الأئمة الزيدية والقبائل. يراجع تفاصيل الأحداث عن بلاد اليمن والدولة القاسمية الزيدية بها: الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥هـ، د. سيد مصطفى سالم، ط٧، منشورات جامعة صنعاء، الفصل التاسع ص ٤٩٢؛ د. سالم، سيد مصطفى، تكوين اليمن الحديث اليمن والإمام يحيى ١٩٠٤-١٩٤٨م؛ المجاهد، محمد محمد، مدينة تعز (غصن نضير في دوحة التاريخ العربي)، الفصل الثالث، ١٩٩٧م.

ومحاصرته صنعاء، وكان لهذه الثورة أثرها في شدة الأحوال الاقتصادية على أهل الحرمين بسبب حرمانهم من غلالهم<sup>(٥٨)</sup>. وتتبعي الإشارة إلى أن بلاد اليمن في أثناء خضوعها للاحتلال العثماني ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كانت تمثل إحدى الأيالات الأربع عشرة التي كانت تتألف منها البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية، وكانت أيلة اليمن تضم تسعة أولية، هي: صنعاء، مخا، زييد<sup>(٥٩)</sup>، تعز، صهلة، كوكبان، طويلة، مأرب، عدن، وكانت البلاد تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيديين. وقد كان لهذا الوضع آثاره الخطيرة في انتشار الاضطرابات واستمرار الفوضى وعدم الاستقرار، وقيام حركات المقاومة المستمرة ضد السلطة العثمانية، وفي الوقت نفسه كان الأئمة يتغلبون على البلاد من حين إلى آخر<sup>(٦٠)</sup>.

(٥٨) المقري، رحلة المقري، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٥٩) مدينة زييد تقع في اليمن بين وادي زييد ووادي رمع، على منتصف الطريق بين البحر الأحمر والجبل، يحدها جنوباً وادي زييد، كانت تتشكل من ثلاث قرى هي: المنامة، النقيير، وجبيجر. واتخذت عاصمة لعدة دول قامت في اليمن منها دولة بني زياد الأموية، ودولة بني نجاح، ودولة بني مهدي، ثم عاصمة للدولة الأيوبية والرسولية والظاهرية في عهد المماليك من تاريخ ٦٣٥-٩٣٣هـ/ ١٢٣٧-١٥٢٥م، ثم تحولت إلى مركز إداري وثقافي في زمن الحكم العثماني للبلاد العربية في سنة ٩٤٥-١٠٤٥هـ/ ١٥٣٨-١٦٣٥م. انظر: الحميري، محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عيَّاس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٨٤.

(٦٠) أباضة، فاروق عثمان، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٣٠.

والمتتبع لتاريخ اليمن في ظل الاحتلال العثماني تستوقفه عدة ملامح سادت في هذه المرحلة التاريخية، ومنها مقاومة الأهالي العنيفة للحكم العثماني، وتغيير القادة العسكريين والولاة العثمانيين بين الفينة والأخرى، وتركيز السلطة العثمانية على توفير سبل الأمن في هذه البلاد منذ بدء الحكم فيها في ربيع الأول ٩٤٥هـ / أغسطس ١٥٢٨م<sup>(٦١)</sup>، وأن نيران الحرب بين الجانبين العثماني واليمني لا تلبث أن تشتعل بينهما. وكان للإمام المؤيد محمد بن القاسم دور في التحريض لمقاومة الوجود العثماني في اليمن، فقد استحوذ على معظم البلاد عدا زبيد ومخا وموزع، إذ كانت ترابط بها حامية عثمانية. ولهذا لم تستطع القوات العثمانية التي وصلت من مصر إلى اليمن من طريق الحجاز أن تهيئ للحكم العثماني الدعم والاستقرار في اليمن لتلك الأسباب والعوامل التي ذكرت سابقاً.

وعكس خطاب المراسلة المقيد بتاريخ ١٠٣٦هـ / ١٦٢٥م الصادر عن المفتي عبدالرحمن بن مرشد أخبار اليمن والحجاز في قوله: "وإن سألتكم عن أحوال هذه الديار، وآثار هذه الأقطار، فهي في غاية من الاعتدال، ونهاية من شوائب الاختلال بحمد الله الملك المتعال، غير أنه سقط في أيديهم من خبر توجه العسكر إلى ناديم، واغتم بذلك حاضرهم وبأديهم، وازدادوا غمًا على غم وهمًا على همهم بورود الأخبار الفظيعة، والقضية الشنيعة من مدينة زبيد، وإظهاره

(٦١) المرجع نفسه، ص ٢٤.

لشنائع البدعة، واستغلوا الرعاع وأتباعهم له بالسرعة، فلم يزل شأنه في الازدياد وأعوانه عثوا في الأرض بالفساد، وحيدر باشا محصوراً بصنعاء يطلب منه الأمان على نفسه وخاصته، ويمتنع عن إجابته إلا بشرط الخروج أعزل ملقياً آلات حربه وأمته، وقد انسدت بينه وبين الحجاز السبل والفجاج، ولم يأتنا من حيدر باشا خبر منذ قدم الحجاج، وإنما تأتي الأخبار من المجاورين لتلك الديار، وقد هرب آغاوات<sup>(٦٢)</sup> بنادر اليمن إلى بندر جدة، وهم مقيمون بها إلى هذه المدة"<sup>(٦٣)</sup>.

كشفت هذه الرسالة إرهابات الجلاء العثماني عن اليمن إثر المقاومة العنيفة التي قامت بها قوات الإمام المؤيد محمد بن القاسم ضدهم، مما هدهم بأسوأ العواقب، إلى أن حاصر زبيداً وفرض شروطه على واليها الذي ظل بداخلها، وجرّد من السلاح إلى حين غادر جميع الممثلين عن السلطة العثمانية من بنادر اليمن باتجاه جدة بعد معارك ضارية بين الجانبين، وعدت هذه المرحلة الأولى من الحكم العثماني

(٦٢) الآغاوات: جمع آغا وهو مصطلح من أصل فارسي، وقيل من كلمة أقا المغولية، وتستخدم صفة للعلماء، وتعني السيد، وقد استعملها الأتراك للدلالة على الكثرة، وكان يطلق على الضابط الأمين مثل الإنكشارية، الذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة، غير أنه في المدة الأخيرة من العهد العثماني أصبح يطلق على الإنسان صاحب المكانة العالية. انظر: المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، الهامش ١، ص ١٧٧؛ صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ١٦.

(٦٣) المقرئ، رحلة المقرئ، ص ٢٤٣.

باليمن، فانسحب العثمانيون من اليمن في العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ / ٢٢ أكتوبر ١٦٣٥م، ليستقل اليمنيون بالحكم تحت زعامة أئمة آل القاسم، غير أنه كان للعثمانيين عودة ثانية مجددة إلى اليمن في سنة ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م<sup>(٦٤)</sup>.

حملت هذه المراسلة أخباراً تخص بلاد اليمن في هذه الحقبة في سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م واضطراب أحوالها السياسية وانقسامها بين حكم الإمام المؤيد بالله والوالي العثماني حيدر باشا، ودخول الطرفين المتنازعين في حروب شرسة وإنهائها بضرب الحصار على صنعاء، وهو ما أدى إلى تدهور أحوال الناس، فاشتد الغلاء ونفدت الذخائر والمؤن، والتف الأنصار حول الإمام المؤيد بالله بعد أن سئموا من سوء سياسة الولاة العثمانيين، فانتصرت قواته، الأمر الذي دفع في النهاية حيدر باشا بالخلود إلى هدنة، وبعد انقضاء مدتها أخلى صنعاء متوجهاً إلى زبيد واستقر بها، وغادر كل أغاوات مدن اليمن إلى جدة<sup>(٦٥)</sup>.

وأضاف قائلاً: "وجاءنا الخبر في الأول إجمالاً فما

(٦٤) المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٢٨٢؛ رافق،

عبدالكريم، العرب والعثمانيون، ص ٢٠٧-٢٢٢.

(٦٥) يراجع تفاصيل الحوادث التاريخية عن اليمن وتأثير وضعها

السياسي والأمني في بلاد الحجاز: يحيى بن الحسين بن القاسم

بن محمد بن علي ١٠٣٥-١١٠٠هـ / ١٦٢٥-١٦٨٩م، غاية الأمانى

في أخبار القطر اليمني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، ومحمد

مصطفى زيادة، دار الكتاب للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص ٨١٩-٨٣٠

وما بعدها.

اعتمدنا عليه، ثم أكد نوع تأكيد فاستندنا في الرواية إليه، فكتبنا به في الكتب السابقة ونحن به غير جازمين، وإنما أسندناه إلى السماع من أفواه الواردين والعازمين...، فورد مكتوب من السيد مغامس بن ثقبه من بلد بيشة، وهو رجل صدوق مخبراً عن طائفة وثقهم وردت إليه، ولها أربعة عشر يوماً عن صنعاء إلى حين الطروق، فحققت له هذا الخبر، فكتبت به إلى مولانا الشريف فلزم علينا حينئذ الإعلام بذلك والتعريف، فكتبنا نسخاً متعددة من صورة الكتاب، وأودعناه كتب الأمراء بذلك الجنب، وترجمناه بالتركية ووضعناه في كتاب الوزيرية...، فنسأل الله أن يكفينا وإياكم شر الفتن، ما ظهر منها وما بطن..."<sup>(٦٦)</sup>.

والنص المذكور أعلاه يبين بصورة واضحة خطورة الأوضاع وتصاعدها سياسياً وأمنياً، فموقع اليمن التجاري الفذ جعلته مطمح الطامعين، فهي كما وصفها الحميري في قوله: "إن مدينة زبيد لوحدها كانت مجتمع التجار من أرض الحجاز وأرض الحبشة وأرض مصر، الصاعدون في مراكب جدة، وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إلى زبيد، وتخرج منها ضروب الأفاويه الهندية والمتاع الصيني وغيره..."<sup>(٦٧)</sup>. واهتمام العثمانيين بها ومحاولاتهم المتكررة في السيطرة عليها جاء في إطار مد النفوذ للسيطرة على منافذ التجارة الدولية عصرئذ، فموقعها في ذلك الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية يعد حلقة اتصال بين الهند وما

(٦٦) المقري، رحلة المقري، ص ٢٤٣.

(٦٧) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٨٤.

يليه من البلاد شرق آسيا من جهة، وبين الصومال والحبشة وما يجاورها من بلاد شرق إفريقيا من جهة ثانية، ثم بين بلاد البحر الأحمر وما يليها من البلاد المطلّة على البحر الأبيض المتوسط من جهة ثالثة. وكان هذا الوضع كافيًا في حرص العثمانيين على حماية الثغور اليمينية في هذه المرحلة التاريخية من عدوان البحرية البرتغالية من جهة وحماية الأماكن المقدسة الإسلامية من التهديد الصليبي من جهة أخرى.

وكذلك الرسالة المؤرخة في جمادى الآخرة سنة ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٥م التي أطلع فيها المرشدي المؤلف المقري على صعوبة الملاحة في الخليج العربي وبحر عمان في قوله: "وإن سألتهم عن أحوال هذه الديار، وآثار هذه الأقطار فقد بلغكم ما حصل لها من التعب، بموجب عدم وصول المراكب، وقد ورد الآن الخبر بأن ثلاثة من الخمسة التي قُهر اثنان منها أُجبر على دخول المخا قد أقبلت بعد التتويه بظفار وسقطرة وعدن<sup>(٦٨)</sup> إلى هذا الجانب، فنسأل الله أن يسلمها من قطاع الطرق، ويسهل لها ما يعوق عن التعويق... وجاءنا مكتوب من محبكم حسن أفندي قاضي سواكن<sup>(٦٩)</sup>... ولا تقطعوا عنا أخباركم المفيدة، وآثاركم

(٦٨) أدت كل من ظفار وعدن وسقطرة أدوارًا يشهد عليها تاريخ الملاحة البحرية في تشييط الحركة التجارية لقرون من الزمن في سواحل البحر الأحمر وبحر العرب.

(٦٩) تقع سواكن على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وهي في الأصل جزيرة، قال عنها الجغرافي الحميري إنها تقع بقرب جزيرة عيذاب، =

المجيدة، بما يتجدد من الأخبار ويحدث بهاتيك الأقطار، وقد وصل ما تفضلتم به من الإحسان، ألبسكم الله من العبقري الحسان، وقد أرسلنا إليكم صحبة الحاج محمد الأندلسي تابع الأمير شيئاً حقيقاً...، وبحوزتكم الشريفة حصل، وكنا أرسلنا لكم في أول سنة خمس وثلاثين مع مركب أمانة...<sup>(٧٠)</sup>.

إن نص الرسالة يحمل عرض حال لما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية كتراجع التجارة العالمية عبر البحر الأحمر بسبب تحويل الخط التجاري إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وذلك مع بداية بروز الدور البرتغالي في فرض نفوذه في الخليج العربي<sup>(٧١)</sup>، وهو ما أثر حتمًا في تدني أحوال مجتمعات تلك الموانئ كميناء عدن، وسقطرة، وميناء ظفار المشهود له بتجارة اللبان. وما انتشار اللصوصية وقطع السبل إلا ظواهر أبرزها الوضع العام في منطقة شبه الجزيرة العربية.

= وهي مدينة عامرة في ساحل بلاد البجاة وبلاد الحبشة. يعد موقعها من أقدم المواقع الذي قامت فيه ميناء على خط ساحل البحر الأحمر، فالميناء يتميز بخليج طبيعي يفيد في حماية السفن العابرة من الأنواء والعواصف، وهو مناسب لرسو السفن، وسهولة عمليتي الشحن والتفريغ. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣٣٢.

(٧٠) المقري، رحلة المقري، ص ٢٤٠.

(٧١) يراجع بحث الباحث البولندي السابق الذكر حول ظهور البرتغاليين في الخليج العربي وأثره في تجارة هذه الجهات:

Jean Kieniewics: *Le Commerce en Asie et l'expansion Portugaise vers L'océan Indien au XVI Siècle*, Tra: Aleksander Wolowski, Acta Poloniae Historica 18, 1968. 180-181.

وقد كانت مبررات العثمانيين في عدم السيطرة المباشرة على المناطق الجنوبية والشرقية من اليمن كثيرة، من جملتها أنها مناطق قاحلة مقارنة بالمنطقة الشمالية ذات الخصوبة. هذا إلى جانب حرص السلطان سليم الثاني العثماني (١٥٦٦-١٥٧٤م) على إحكام سيطرته على الملاحة في البحر الأحمر، التي أصبحت مناطق مهددة من البرتغاليين، إذ أرسل حملة بقيادة سنان باشا لتطهير هذا البحر منهم، وقد تمكن منهم واحتل جدة، وزبيدًا، ومخا، وسواكن، وضم سواكن إلى ولاية الحجاز، وكان حكامها وقضاتها يُعينون من والي الحجاز. وعند استيلاء محمد علي باشا على السودان لم تعترف الدولة العثمانية بسيادته على سواكن، وقد أجرتها له مقابل دفع نسبة من الأموال سنويًا. وظلت تبعيتها تتأرجح بين مصر والحجاز إلى تاريخ الاحتلال البريطاني الذي سيطر على مصر بما فيها سواكن.

### ٣- تفاقم الأزمات الاقتصادية وآثارها:

احتوت المراسلات بين العالمين على أخبار تخص الأحوال الاقتصادية في الديار الحجازية ما بين سنتي ١٠٣٥-١٠٣٦هـ / ١٦٢٥-١٦٢٦م، ومن ذلك الرسالة المؤرخة في ذي القعدة سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م، التي أخبر فيها المفتي عبدالرحمن بن مرشد عن قدوم خمسة مراكب من الهند إلى الحرمين الشريفين، لكن الأول منها جرت مصادرتة في مرفأ مدينة المخا<sup>(٧٢)</sup> باليمن شمالي باب المندب، وتأخرت

(٧٢) برزت مكانة مدينة مخا بوصفها أهم مركز تجاري في البحر =

المراكب الأخرى بسبب ذلك، وعدم وصول أي منها إلى ميناء جدة، فحصل كرب شديد لأهل الحرمين.

وهذا نص المراسلة: "وكانت وردت الأخبار إلى الديار بوصول مراكب خمسة من البنادر الهندية، فاستبشر بها أهالي الحرمين الرعاية منهم والرعية، فلما حاذى أولها بندر المخا، وسخرت لسعره منه الريح الرِّخا، تعرض له القبطان بمن معه من اللوند<sup>(٧٣)</sup> والأعوان، فأدخلوه البندر قهراً بعد

= الأحمر، لحجم تبادل السلع التجارية المختلفة، إذ شكل ميناء المخا أهم موانئ تصدير البن في اليمن، وإليه نسب أجود أنواع البن في العالم، فقد كان يطلق عليه اسم موكا كافييه (Mocha Coffee) أي (بُن المخا)، وقد ازدهرت التجارة في المخا بشكل كبير حتى بلغ حجم التجارة فيها أربعة أضعاف تلك التي في ميناء جدة في القرن ١١هـ/١٧م. للمزيد عن أهمية هذا الميناء ضمن مقال للباحث صادق محمد الصفواني، ميناء المخا في مراحل الازدهار التجاري، حولية كلية الآداب، جامعة تعز، ٥٤، ٢٠١٥م، ص ١٦١-١٨٩.

(٧٣) اللوند: لفظ محرف من كلمة لفانتيانو (Lavantino) الإيطالية التي تعني الشرقي، وقد أطلق على ملاح السفينة أو ربانها، وأطلق على فئة من عساكر القوات البرية، ومنهم الخيالة التي تتحمل المشقة، وهم من أصول رومية، التي ازداد وجودها في عهد حكم السلطان العثماني محمد الفاتح، ويبدو أن هذا اللفظ أصبح يطلق فيما بعد على الأجناد المحليين غير المحترفين، الذين استخدموا من مصر إلى اليمن في الحروب لمواجهة البرتغاليين الموجودين على سواحل (ديو وجوا) وفي مرسى (قمران) على الساحل الشرقي لليمن، وتذكر الرواية أن اللوند في اليمن كانوا يعيشون فيها فساداً، فلم يتركوا أميراً إلا وحاربوه ولا بلداً إلا استنزفوه، غير أن الأمور تغيرت منذ أن تولى السلطان سليم الأول، فقد تابعهم فأعلنوا له الطاعة. يراجع: صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ١٩٧.

الممانعة، فطاوعهم قسرًا حيث لم تمكنه المدافعة، وباقي المراكب تأخرت وتوهت، وقصر بها الريح أو الخوف من أن يصنع بها ما صنع بالأول، إن أقبلت وتوجهت، فلم يصل إلى جدة في هذا الموسم مركب فحصل لأهل الحرمين أشد كرب، فاقترضى رأيهم أن يكتبوا إلى وزير اليمن، ويشكوا عليه ما فعله القبطان فكتبوا محاضر، وكتب معهم ولادة الأمر، والأعيان، ووجهوا بذلك رسلاً، فهاهم في انتظار الجواب، فإن ارعوى وأرسل لهم ما استولى عليه وإلا عرض الأمر على الأبواب...<sup>(٧٤)</sup>.

كشفت مراسلة الشيخ المرشدي للعالم المقري قيمة تلك المعلومات، إذ ضمنها بعرض دقيق للأوضاع التي واكبت الأزمات الاقتصادية في بعض موانئ الخليج العربي، إذ أخبره عن تلك الحوادث المعقدة والمتشابكة بسبب تفشي السطو على التجارة البحرية، وظهور قوى الصراع للسيطرة على منافذ العبور نحو تجارة الهند في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وكان لهذا الوضع نتائجه في بروز ظاهرة القرصنة التي أثرت في أحوال مجتمعات شبه الجزيرة العربية اقتصاديًا بشكل خاص، واستقلال تلك البلدان سياسيًا<sup>(٧٥)</sup>.

(٧٤) المقري، رحلة المقري، ص ٢٣٧.

(٧٥) تومانونفيتس، نتاليا نيكولايفنا، الدول الأوروبية في الخليج العربي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، ترجمة: سمير نجم الدين سطاتس، مركز جمعة الماجد للنشر والتوزيع، دبي، ٢٠٠٦م، ص ٦٩-٧١.

وعند مقارنة هذه الأخبار بما سُجل حول تاريخ هذه الأقطار نجد أنها مرتبطة بالتحرك البرتغالي في منطقة الخليج العربي والعماني، وبداية سيادتهم المظلمة عليها. وطال هذا الوضع الحرج، إذ أصبحت المراكب البرتغالية تمارس أعمال القرصنة في البحار، فتعرض السفن العربية المحملة بالبضائع المختلفة إلى عرض البحر، فتسلبها السلع وتغرقها بمن فيها<sup>(٧٦)</sup>. والحقيقة أن العثمانيين أدركوا خطورة الوضع ونوايا البرتغاليين للسيطرة على هذه الجهة، ولم يكن بإمكانهم منع دخول السفن البرتغالية إلى البحر الأحمر ما لم يكملوا سيطرتهم على اليمن، وتأمين سواحل البحر الأحمر من الجهتين. ولهذا لم يكن للدولة العثمانية كبير أرب في اليمن لفقره وقلة موارده وصعوبة السيطرة عليه لوعورة أراضيه، واستقلال أهله، وكان اهتمامها منصباً على موانئ اليمن الواقعة على البحر الأحمر وبحر العرب، وإدراك العثمانيين أهمية اليمن الإستراتيجية في نزاعهم مع البرتغاليين<sup>(٧٧)</sup> خشية أن يستولي عليها هؤلاء، إذ كان خطرهم يشتد ضراوة في هذه البحار بعد أن استولوا على عدد من الثغور في غربي الهند.

(٧٦) تومانوفيتس، الدول الأوروبية، ص ٧٢.

(٧٧) صابان سهيل، نظرة عامة في السياسة العثمانية لتثبيت الحكم

باليمن من واقع دقاتر المهمة ٩٦٧-٩٩٩هـ / ١٥٥٩-١٥٩١م.

Fırat Üniversitesi Orta Doğu Araştırmaları Dergisi Cilt: XII, Sayı:1-2, Elazığ, 2016, pp. 77-94.

وفي رسالة أخرى مؤرخة في ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م وردت عن المفتي عبدالرحمن بن مرشد أخبار عن أثر الأزمة المالية في التسديد والإنفاق والتمويل لديار مصر في قوله: "... ولم يتفق في هذا العام لمقتضى الحال والمقام إرسال شيء من هذا الجانب إلى الملك اكتفاء بما سبق على يد الآغا محمد بن بهرام، مع كثرة ما على صاحب الحجاز من اللوازم التي لا يفي مدخوله بالبعض منها، ويقصر جميع خراج نواحي أيارته عنها، فلم يكن للمجال في الشيء الذي لمحتّم إليه مجال"<sup>(٧٨)</sup>. وعليه كشفت هذه المراسلات جوانب مهمة عن الوضع الاقتصادي لبلاد شبه الجزيرة العربية من رخاء في بعض الأوقات، وضيق مالي بسبب الأزمات الخانقة، التي كان للأوضاع السياسية ونتائجها أثر واضح في المنطقة عموماً.

#### ٤- الإعلام عن بعض الوظائف السلطانية ونظمها:

تحتوي هذه المراسلات على معلومات في غاية الأهمية عن بعض الألقاب والمراتب والوظائف السلطانية التي تقلدها الأعيان من الوزراء والولاة والقضاة، وما ارتبط بهذا الصنف من النظم السلطانية، كذكر البراءات<sup>(٧٩)</sup>، والإمامة،

(٧٨) المقري، رحلة المقري، ص ٢١٩.

(٧٩) وتعرف بالبرات، وهي كلمة عربية أصلها البراءة، وتعني الرسالة، وأطلقت في الدولة العثمانية على الفرمانات التي تصدر للتعيين على وظيفة أو منح وسام أو نيشان أو امتياز معين، وكانت تستخدم بدلاً منها في أحيان كلمة منشور. انظر: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ٥٩-٦٠.

والخطابة، والجرايات والعثمانية، والجوالي<sup>(٨٠)</sup>، ويبرز هذا في قوله: "وقد ورد إلينا في هذا العام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٥م ببركتكم من الأبواب السلطانية براءات وأحكام، منها حكم بخطابة الموقف الشريف في يوم التعريف على طبق ذلك العرض الذي أرسل بمعرفتكم، لكنه من غير الجهة التي عليها عولتم، ومنها براءة بتدريس بمدرسة الوزير محمد باشا<sup>(٨١)</sup> لولدكم

(٨٠) إن أصل معنى مصطلح (الجوالي) كان يدل على تلك الجماعات التي اضطرت إلى الجلاء عن موطنها الأصلية بمبادرة من الحكم المركزي لأسباب أمنية، ويظهر مصطلح جالية بمعناه الإداري المالي في كتب اللغة والفقهاء الإسلامي على أنه ضريبة على الرأس، وقد استعملت في كل جزية تؤخذ، وإن لم يكن صاحبها (أجلي) عن وطنه، فيقال: استعمل فلان على الجالية، والجمع (الجوالي)، وعرف في بعض الجهات بمال الجماجم. والملاحظ أن المصادر العربية لا تكشف عن زمن محدد في بدء تطبيق هذه الضريبة، غير أن أغلبها ترفعها إلى عنصر أهل الذمة، غير أنها شملت جميع الطوائف الدينية في وقت تداخلت المفاهيم وغابت دلالتها، وأصبح وضعها يطرح إشكالاً منهجياً في المتابعة التاريخية لتلك الضرائب في تاريخ المسلمين. انظر: الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، تحقيق: عبدالعظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ط٢، ص ١٠٦؛ ج. ف. ب. هوبكنز، النظم الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨٠م، ص ٦٧-٧٠. ويراجع النص ضمن رحلة المقري، ص ٢٤٠.

(٨١) تقع مدرسة الوزير محمد باشا في السوقية، وكانت في الأصل بيمارستان ثم حولت إلى مدرسة أنشأها والي مصر محمد باشا في سنة ٩٧٧هـ / ١٥٦٥م، وأشهر من تولى التدريس بها أفراد من أسرة المرشدي، يتصدرهم الشيخ عبدالرحمن بن مرشد، إذ درّس بها صحیح البخاري، إلى جانب علوم اللغة من صرف وعروض وبلاغة، وتولى كل من ابنه حنيف الدين المرشدي (ت. ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م) =

حنيف، ومنها براءة ثانية له بتقليده نصف وظيفه الإمامة والخطابة عن أبيه بجميع ما لها من المعلوم، وترك النصف الثاني ليباشره الأب حسبة كيلا يحرم ذلك التشريف. ومنها حكم سلطاني يخاطب به صاحب مصر، مضمونه الإنعام على محبكم الصنو أحمد بثلاث جرايات وأربعين عثمانية من الجوالي...".

وتضمنت هذه المراسلات ذكر أسماء بعض أعيان القرن الحادي عشر الهجري وقضاته مثلوا النخبة الفعالة في صنع القرار السياسي والمعرفة العلمية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومنهم: أحمد باشا الحنظلي، والأغا محمد بن بهرام، والخواجة عبدالعظيم الحمصي، وغيرهم، وقد ورد ضمن الرسالة المؤرخة بتاريخ ١٠٣٥هـ / ١٦٢٤م ذكر أسماء لقضاة تولوا منصب القضاء في مكة المكرمة كأحمد بن عيسى المرشدي، الذي توفي سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م، وهو أخو عبدالرحمن صاحب الرسائل، أحد فضلاء مكة وأدباؤها، وكان مع أدبه الباهر فقيهاً متضلعا، تولى قضاء مكة نيابة عن عبدالرحيم الشعراني المصري<sup>(٨٢)</sup>. وقد كان

= وإمام الدين عيسى المرشدي (ت. ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م) التدريس فيما بعد. انظر: عبدالمنعم عبدالرحمن عبدالمجيد، المدارس السلطانية في مكة المكرمة ودورها العلمي إبان القرن الحادي عشر الهجري، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، ٣٧ع، ٢٠١٨م، ص ٧٣٥-٧٨١؛ جلبي، أوليا، الرحلة الحجازية من مقدمة المترجم الصفصافي أحمد القطوري.

(٨٢) هو عبدالرحيم بن عبدالمحسن بن عبدالرحمن بن علي الشعراني المصري، نزيل قسطنطينية، ولد بمصر وتعلم بها وأخذ =

لهذه الثروة المعلوماتية أثر واضح في الكتابة لتاريخ النظم في تلك الحقبة الزمنية، إذ يعز ذكرها ضمن مصنفات مستقلة .

وذكر في الرسالة بعض أسماء لقضاة مشهورين من مصر كأبي السرور البكري<sup>(٨٣)</sup>، والشيخ عبداللطيف أفندي أنس<sup>(٨٤)</sup>، وعبدالرحمن الخياري.

وإلى جانب هؤلاء القضاة، ذكرت أسامي بعض علماء القرن الحادي عشر للهجرة، منهم من هو من أهل الحجاز، ومنهم من وفد إليها من البلاد الإسلامية، وهذا يبرز مدى التفاعل العلمي والفكري الذي شهدته الحجاز في استقطاب النخبة المثقفة والحرص على العناية بها، وممن ورد ذكرهم:

= العلم عن قريبه القطب الرباني الشيخ عبدالوهاب الشعرائي، صاحب العهد، ولي قضاء الحرمين ثم تقاعد بمدرسة السلطان أحمد، وله تأليف منها رسالته الموسومة ب: (إيقاظ الوسنان من سنته في بيان آل الموصول وصلته). انظر: المحبي، خلاصة الأثر، ٢٦٦/١، ٤١٠/٢.

(٨٣) هو أحد أبناء الشيخ محمد البكري، وهو شافعي المذهب، واشتهر بأن له معارف الصوفية، والبلاغة الكاملة في إلقاء الدروس البكرية، ودرس في الجامع الأزهر وكانت له مخالطة للحكام.

(٨٤) هو عبداللطيف المعروف بالأنسي، أحد موالى الروم، أصله من بلدة كوتاهية، وعندما استقر في مصر تولى قضاء الركب المصري الذي يعرف بقاضي المحمل ومحاسبة الأوقاف، لينال بعد ذلك قضاء عدة مدن منها: طرابلس الشام، مكة المكرمة، بغداد، دمشق، وبها توفي. يراجع: المقرئ، رحلة المقرئ، ص ٢٢٤؛ المحبي، خلاصة الأثر، ٢٣/٣.

عبدالرحمن بن علي بن موسى الخياري الشافعي المصري (ت. ١٠٥٦هـ)، أخذ بمصر عن النور الزيادي وأحمد الغنيمي والشيخ الخفاجي وأجازوه، تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة لازمه فيها جمع من أكابر الشيوخ، وأخذوا عنه ثم هاجر إلى المدينة المنورة سنة ١٠٢٩هـ وسكنها، وصار خطيبها ومحدثها وإمامها الكبير، وانتفع به أهلها، وبها كانت وفاته<sup>(٨٥)</sup>. وكذلك العالم الجليل عبدالرحيم بن عبدالرحمن الشعراني، كان من العلماء البارزين في عصره، تولى قضاء الحرمين ثم تقاعد بمدرسة السلطان أحمد، له تأليف منها: (إيقاظ الوسنان) توفي سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م<sup>(٨٦)</sup>.

وقد أطنب الشيخ عبدالرحمن المرشدي الذكر في مراسلاته عن نجله الشيخ حنيف الدين بن عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد (١٠١٤هـ / ١٠٦٧م) مفتي الحنفية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، فهو ابنه البار، ذكره في أغلب رسائله إلى المقري التلمساني، مشيداً بأخلاقه وحرصه على تعلم العلوم وتحصيلها من تلك الإجازات التي نالها من جهاذة العلم المعاصرين له أمثال: عبدالرحمن الخياري الشافعي المصري السالف الذكر، وعن أبي العباس المقري نفسه الذي أثبت نص إجازته ضمن رحلته، وسنرد مما خصه في قوله<sup>(٨٧)</sup>:

(٨٥) المحبي، خلاصة الأثر، ٢/٣٦٧.

(٨٦) المصدر نفسه، ٢/٤١٠.

(٨٧) المقري، رحلة المقري، ص ٨١.

نجلُ الإمامِ عابدِ الرحمنِ  
 مفتي الوري في مذهبِ النعمانِ  
 من علمه أمطى الرواة العيسا  
 العالمُ العلامة ابن عيسى  
 خطيبُ سرح البلدِ الحرامِ  
 لا زال بالغاً قصى المرامِ  
 وعندما عدتُ إلى أم القرى  
 مؤملاً من خالقي حسن القرى  
 شمتت عرفَ الودِّ من تلقائه  
 وشمتُ برقَ المجدِ في لقائه  
 فكلفَ النجلُ بالأخذِ عني  
 لما اقتضاه من حسنِ الظنِّ

تولى حنيف الدين بعد وفاة والده الخطابة في مسجد الحرام، والتدريس خلف مقام الحنفية وفي مدرسة محمد باشا، وتولى الإفتاء السلطاني بالديار الحجازية في سنة ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م. وترك رصيماً مما ألفه في شرح مناسك الوسيط، وبغية السالك الناسك فيما يتعلق بأداب السفر وأدعية المناسك، وشفاء الصدر والقول المحق، والسيف الشهير على من جوز استبدال الوقف بالدراهم والدنانير<sup>(٨٨)</sup>. وفي قوله: "وقد ورد إلينا في هذا العام ببركتكم من الأبواب السلطانية براءات وأحكام منها حكم بخطابة الموقف

(٨٨) المحبى، خلاصة الأثر، ١٢٦/٢-١٢٧.

الشريف في يوم التعريف على طبق ذلك العرض الذي أرسل بمعرفتكم لكنه من غير الجهة التي عليها عولتم، ومنها براءة بتدريس في مدرسة الوزير محمد باشا لولدكم حنيف، ومنها براءة ثانية له بتقليد نصف وظيفة الإمامة والخطابة عن أبيه بجميع ما لها من معلوم وترك النصف الثاني ليباشر الأب حسبة كيلا يحرم ذلك التشريف، ومنها حكم سلطاني يخاطب به صاحب مصر، مضمونه الإنعام على محبكم الصنو أحمد بثلاث جرايات وأربعين عثمانية من الجوالي، وقد أرسلنا إلى صاحب مصر، ونحن منتظرون إجابته<sup>(٨٩)</sup>.

هذا، فضلاً عما احتوته تلك الرسائل من صور تجلت في انتعاش الحركة العلمية داخل الحرمين، وقد أظهر الشيخ عبدالرحمن بن مرشد مظاهرها في وصفه إياها قائلاً: "تتلى سوره في الملتزم والحطيم، وتجلي صورته في مقام الخليل إبراهيم، فتؤمن عليه الملائكة الحافون بالبيت الحرام، الصافون في ذلك المعبد الشريف المقام، بأن يديم الله تعالى مجالس العلم مأنوسة الربوع، ويقوم مدارس الفضل مأهولة الجموع..."<sup>(٩٠)</sup>. وأشاد في كل مراسلاته بمكانة العالم المقري التلمساني وسمعته، الذي علا شأنه لدى أهل الحجاز، مما حدا بهم إلى تلبية جميع مطالبه من طرف حكامها وأعيانها، ولا سيما تلك المتعلقة خيراً في شأن الوافدين من مصر وغيرها إلى البقاع المقدسة.

(٨٩) المقري: رحلة المقري، ص ٢٤٠

(٩٠) المقري، رحلة المقري، ص ٢٤٢.

وتتأثر كثير من المصطلحات والعبارات ضمن نصوص المراسلات، التي تعبر عن تداولها نظماً قائمة امتزجت فيها روح التثاقف وسلطة الحضور العثماني عصرئذ في البلاد العربية، وعلى سبيل الذكر الأيالة، الحضرة العزيزة المحسنية، الدرهم البرمكية، آغا، البندر، الكورجة، السردار، الحضرة الوزيرية، الجناب، الأبواب، الجوالي العثماني. والملاحظ على المستوى اللغوي للمراسلات أنه مزيج بين الأصول الفارسية والتركية الشائعة في عصر المتراسلين، وهذا أبرز روح العصر بثقافته وحضارته، التي اصطبغت عليه وفق مجال تداولها واستخدامها.

### الخاتمة:

عني البحث بدراسة محتوى المراسلات التي قيدت في زمن القرن الحادي عشر الهجري/ القرن السابع عشر الميلادي، التي جرت بين عالين جليلين كان لهما الحضور القوي والفعال في تلك الحقبة التاريخية، لما نالا من الفضل والمكانة العالية في المجتمع، وقد ظهر من هذه المراسلات أن الترسل شكل مصدرًا في تتبع الظاهرة التاريخية بما يحمله من الأخبار المتناثرة بين سطور نصوص الخطابات المتبادلة بين المتراسلين، فقد أمكن التوصل ضمن تلك المراسلات بين العالمين المقرئ والمرشد إلى كثير من القضايا السياسية والحضارية لعدد من الأقطار العربية عامة ومكة المكرمة والمدينة المنورة خاصة.

وأسهمت تلك المراسلات والمخاطبات في الكشف عن

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والإدارية في الحجاز وبعض الأقطار العربية كالعراق واليمن وعمان ومصر أكثر مما قدمته أحياناً بعض المدونات التاريخية والجغرافية المتخصصة ذات الطابع التوثيقي.

واستطاع خطاب المراسلات المتبادل بين العالمين المقري والمرشدي أن يقدم كثيراً من المعلومات التاريخية التي شهدتها عدد من الأقطار العربية في ظل الحكم العثماني لها، وما رافقها من تغيرات وتطورات على مختلف الأصعدة السياسية والعلاقات الدولية وآثارها الاقتصادية.

وحملت الرسائل أخباراً عن أحوال سير الحج في أزمنة مقيدة بتاريخ، وهذا أضفى عليها روح مصداقية الإعلام بما حملت من حوادث وآثارها في الوضع الأمني في مكة المكرمة والمدينة المنورة على وجه التحديد.

وكشفت تلك المراسلات مدى اهتمام النخبة العالمية بأحوال الحج وتطوراته المرتبطة بالتحويلات التاريخية التي شهدتها الأقطار العربية عامة والحجاز خاصة في ظل الحكم العثماني لها، وما حام حولها من تقلبات وعوارض مناخية وأمنية وسياسية واقتصادية في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.